فالمعنى هنا أن الله تعالى قدَّم الوفاة على الرفع ، حتى لا يظن أحد أن عيسى - عليه السلام - تبرأ من الوفاة ، فقدَّم الشيء الذى فيه شكٌّ أو جدال ، وما دام قد توفَّاه الله فقد أخذه كاملاً غير منقوص ، وهذا يعني أنه لم يُصلَب ولم يُقتل ، إنما رفعه الله إليه كاملاً .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ .. (١١) ﴾ [السجدة] جاءت ردّاً على قولهم ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة] فالحق الذى قال أنا خلقتُ الإنسان لم يقُلْ وأنا سأعدمه إنما سأتوفاه ، فهو عندى كاملٌ بروحه وبذراته التكوينية ، والذى خلق فى البَدْء قادر على الإعادة ، وجمع الذرات التى تشتتت .

وقوله عن ملك الموت ﴿ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١) ﴾ [السجدة] أى : يرقبكم ولا يغفل عنكم ، يلازمكم ولا ينصرف عنكم ، بحيث لا مهربَ منه ولا فكَاك ، كما قال أهل المعرفة : الموت سهم انطلق إليك فعلاً ، وعمرك بمقدار سفره إليك ، فهو واقع لا محالة . كما قلنا فى المصيبة وأنها ما سُمِّيت مصيبة إلا لأنها ستصيبك لا محالة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾ [السجدة] أى : يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾

تصوِّر لنا هذه الآية مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يوم يُساق

المجرم ذليلاً إلى ما يستحق من العذاب ، كأنْ ترى مجرماً مثلاً تسوقه الشرطة وهو مُكبَّل بالقيود يذوق الإهانة والمذلّة ، فتشفى نفسك حين تراه ينال جزاءه بعد أنْ أتعب الدنيا وأداخ الناس .

وفى هذا المشهد يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ، وهو أول مخاطب ، ثم يصبح خطاباً لأمته : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٢)﴾ [السجدة] أى : حالة وجودهم أنهم ناكسو رءوسهم . وتقدير جواب الشرط : لرأيتَ أمراً عجيباً يشفى صدرك مما فعلوه بك .

ونلحظ فى هذا الأسلوب دقة الأداء فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ .. (١٢)﴾ [السجدة] فلم يقل مثلاً : ولو تعلم ؛ لأن إخبار الله كأنه رؤيا العين ، فحين يخبرك الله بأمر ، فاعلم أنه أصدق من عينك حين ترى ؛ لأن عينك قد تخدعك ، أما إخبار الله لك فهو الحق .

ومعنى ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ .. (١٢)﴾ [السجدة] النكس هو جَعْل الأعلى أسفل ، والرأس دائماً فى الإنسان أعلى شىء فيه .

وقد وردتْ هذه المادة فى قوله تعالى فى قصة إبراهيم عليه السلام حين حطم الأصنام ، وعلَّق الفأس على كبيرهم : ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥)﴾ [الأنبياء]

فبعد أنْ عادوا إلى رشدهم واتهموا أنفسهم بالظلم انتكسوا وعادوا إلى باطلهم ، فقالوا : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥)﴾ [الأنبياء]

وورد هذا اللفظ أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ [يس]

والمعنى : نرجعه من حال القوة والفتوة إلى حال الضعف والهرم وعدم القدرة ، كما قال سبحانه : ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا .. ﴿٧٠﴾﴾ [النحل]

فبعد القوة يتكىء على عصا ، ثم لا يستطيع السير فيحبو ، أو يُحمل كما يُحمل الطفل الصغير ، هذا هو التنكيس فى الخَلْق ، وحين نتأمله نقول : الحمد لله لو عافانا من هذه الفترة وهذه التنكيسة ، ونعلم أن الموت لُطْف من الله ورحمة بالعباد ، ألاَ ترى أن مَنْ وصل إلى هذه المرحلة يضيق به أهله ، وربما تمنَّوْا وفاته ليستريح وليستريحوا ؟

وتنكيس رءوس المجرمين فيه إشارة إلى أن هذه هى العاقبة فاحذر المخالفة ، فمَنْ تكبر وتغطرس فى الدنيا نُكِّسَتْ رأسه فى الآخرة ، ومَنْ تواضع لله فى الدنيا رُفعت رأسه ، وهذا معنى الحديث الشريف : « من تواضع لله رفعه »[1] .

وفى تنكيس رءوس المجرمين يوم القيامة معنى آخر ؛ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ سيفعل فى كل مخالف فى الآخرة من جنس ما فعل فى الدنيا ، وهؤلاء الذين نكَّس الله رءوسهم فى الآخرة فعلوا ذلك فى الدنيا ، واقرأ إن شئتَ قول ربك : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .. ﴿٥﴾﴾ [هود]

أى : يطأطئون رءوسهم ؛ لكى لا يواجهوا رسول الله ، فللحق صَوْلة وقوة لا يثبت الباطل أمامها ؛ لذلك نسمع من أصحاب الحق :

---

(١) أخرج أبو نعيم فى حلية الأولياء (٨/٤٦) من حديث أبى هريرة قال : قال ﷺ : « من تواضع لله رفعه الله » . وكذا (٧/١٢٩) عن عمر بن الخطاب أنه قال : يأيها الناس ، تواضعوا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تواضع لله رفعه الله » .

تعالَ واجهنى ، هات عينى فى عينك . ولا بُدَّ أنْ يستخزى أهل الباطل ، وأنْ يجبنوا عن المواجهة ؛ لأنها ليست فى صالحهم .

وهذا العجز عن المواجهة يدعو الإنسان إلى ارتكاب أفظع الجرائم ، ويصل به إلى القتل ، والقتل لا يدل على القوة ، إنما يدل على عجز وضعف وجُبْن عن المواجهة ، فالقاتل أقرَّ بأنه لا يستطيع أنْ يواجه حياة عدوه فقتله ، ولو كان قوياً لواجه حياته .

ومن العذاب الذى يأتى من جنس ما فعل الإنسان فى الدنيا قول الله تعالى فى الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة]

سبحان الله ، كأنها صورة طبق الأصل مما فعلوه فى الدنيا ، فالواحد منهم يأتيه طالب العطاء فيعبس فى وجهه ، ثم يُعرض عنه ، ويعطيه جنبه ، ثم يعرض عنه ويعطيه ظهره ، ويأتى العذاب بنفس هذا التفصيل . إذن : فعلى العاقل أن يحذر هذه المخالفات ، فمن جنسها يكون العذاب فى الآخرة .

وهؤلاء المجرمون حال تنكيسهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة] هذا كلامهم ، ومع ذلك لم يقل القرآن : قالوا أبصرنا وسمعنا ، فحَذْف الفعل هنا يدل على أن القول ليس سهلاً عليهم ؛ لأنه إقرار بخطئهم الأول وإعلان لذلَّة التوبة .

وقلنا : إن هذه هى الآية الوحيدة التى تقدَّم فيها البصر على السمع ؛ لأن الساعة حين تأتى بأهوالها نرى الهول أولاً ، ثم نسمع ما نراه .

لذلك يقول تعالى مُصوِّراً أثر هذا الهول : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝ ﴾ [الحج]

وفي معرض حديثنا السابق عن الحواس : السمع والبصر والفؤاد فاتنا أنْ نذكر آية مهمة جاءت على غير هذا الترتيب ، وهي قول الله تعالى : ﴿ خَتَمَ (١) اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾ [البقرة]

فجاء الفؤاد هنا أولاً ، وجمع الفؤاد مع السمع في الختم لأنهما اشتركا فيه ، أما البصر فاختص بشيء آخر ، وهو الغشاوة التي تُغطِّي أبصارهم ؛ ذلك لأن الآية السابقة في السمع والبصر والفؤاد كانت عطاءً من الله ، فبدأ بالسمع ، ثم البصر ، ثم ترقى في العطاء إلى الفؤاد ، لكن هنا المقام مقام سلب لهذه النعم ، فيسلب الأهم أولاً ، فأتى بالفؤاد ثم السمع ثم الأبصار .

لكن أي شيء أبصروه ؟ وأي شيء سمعوه في قولهم ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. ۝ ﴾ [السجدة] ؟ أول شيء يبصره الكافر يوم القيامة ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. ۝ ﴾ [النور] وحده سبحانه ليس معه شريك من الشركاء الذين عبدوهم في الدنيا ، وليس لهم من دونه سبحانه وليٌّ ، ولا شفيع ، ولا نصير .

ومعنى ﴿ سَمِعْنَا .. ۝ ﴾ [السجدة] أي : ما أنزلته يا رب على رسولك ، ونشهد أنه الحق وصدَّقنا الرسول في البلاغ عنك ، وأنه

---

(١) أي : غطاها فأحكم غطاءها فهم لا يفهمون ولا يسمعون . [القاموس القويم ١/١٨٧]
قال أبو إسحاق : معنى ختم وطبع في اللغة واحد ، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن لا يدخله شيء . [لسان العرب ـ مادة : ختم] .

ليس مُفْترياً ، ولا هو شاعر ، ولا هو ساحر ، ولا هو كاذب[1] .

لكن ، ما فائدة هذا الاعتراف الآن ؟ وبماذا ينفعهم[2] وهم فى دار الحساب ؟ لا فى دار العمل والتكليف ؟! وما أشبه هذا الاعتراف باعتراف فرعون قبل أنْ يغرق : ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ .. (٩٠)﴾ [يونس] لذلك ردَّ الله عليه : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

فقولهم : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢)﴾ [السجدة] إقرار منهم بأنهم كانوا على خطأ ، وأنهم يرغبون فى الرجوع إلى الصواب ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون] ، وردَّ الله عليه : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

ثم كشف حقيقة أمرهم : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

وهنا يقولون : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة] وهل يكون اليقين فى هذا الموقف ؟ اليقين إنما يكون بالأمر الغيبى ، وأنتم الآن فى اليقين الحسىِّ المشاهَد ، فهو إذن يقين لا يُجدى[3] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٣٥٣/٧) : « أى أبصرنا ما كنا نكذِّب ، وسمعنا ما كنا ننكر . وقيل : أبصرنا صدق وعيدك وسمعنا تصديق رسلك » .

(٢) قال قتادة : أبصروا حين لم ينفعهم البصر ، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥٤٤/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٥٣٥٤/٧) : « قيل : معنى ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة] أى : قد زالت عنا الشكوك الآن ، وكانوا يسمعون ويبصرون فى الدنيا ، ولكن لم يكونوا يتدبرون ، وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع ، فلما تنبهوا فى الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾

هنا قد يسأل سائل : لماذا جعل الله الناسَ : مؤمناً وكافراً ، وطائعاً وعاصياً ؟ لماذا لم يجعلنا جميعاً مهتدين طائعين ؟ أهذا صعب على الله سبحانه ؟ لا ، ليس صعباً على الله تعالى ، بدليل أنه خلق الملائكة طائعين مُنفِّذين لأوامره سبحانه ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

كذلك الأرض والسماء والجبال .. الخ ، كلها تُسبِّح الله وتعبده ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

وقال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] ، وبعد ذلك يعطى الله تعالى لبعض خَلْقه معرفة هذا التسبيح ، كما قال فى حق داود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

نعم ، هى تُسبِّح أيضاً مع غير داود ، لكن الميزة أنها تشترك معه فى تسبيح واحد ، كأنهم (كورس) يرددون نشيداً واحداً .

وعرفنا فى قصة الهدهد وسليمان - عليه السلام - أنه كان يعرف قضية التوحيد على أتمِّ وجه ، كأحسن الناس إيماناً بالله ، وهو الذى قال عن بلقيس ملكة سبأ : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل]

وقال ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ[1] فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾ [النمل]

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يريد أنْ يُدلِّل لخَلْقه على قدرته يجعل من الضعف قوة ، ومن القوة ضعفاً ، وانظر إلى حال المؤمنين الأوائل ، وكم كانوا أذلة مستضعفين ، فلما أسلموا رفعهم الله بالإسلام وجعلهم سادة .

ومشهورة قصة الصِّدِّيق أبى بكر لما أدخل عليه المستضعفين أمثال : عمار وبلال .. وترك صناديد قريش بالباب ، فعاتبه أبوه على ذلك : كيف يُدخل العبيد ويترك هؤلاء السادة بالباب ؟ فقال أبو بكر : يا أبى ، لقد رفع الإسلام الخسيسة ، وإذا كان هؤلاء قد ورمتْ أنوفهم أن يدخل العبيد قبلهم ، فكيف بهم حين يُدخِلهم اللهُ الجنةَ قبلهم؟ .

وعجيب أن يصدر هذا الكلام من الصِّدِّيق أبى بكر ، مع ما عُرِف عنه من اللين ورِقَّة القلب والحلم .

وهذا لون من تبديل الأحوال واجتماع الأضداد ، وقد عرض الحق ـ تبارك وتعالى ـ لهذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) ﴾ [المطففين] يعنى : يسخرون منهم ويهزأون بهم ، كما نسمع من أهل الباطل يقولون للإنسان المستقيم (خدنا على جناحك) .

---

(١) الخبء : كل ما غاب ، وهو كل شيء غائب مستور ، والخبء الذى فى السماوات هو المطر ، وفى الأرض هو النبات . [لسان العرب ـ مادة : خبأ] .

وليت الأمر ينتهى عند هذا الحد ، إنما إذا عادوا إلى أهلهم كرروا هذا الاستهزاء ، وتبجحوا به ، وفرحوا لإيذائهم لأهل التقوى والاستقامة : ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) ﴾ [المطففين] لكن يُنهى الحق سبحانه هذا الموقف بقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) ﴾ [المطففين] ثم يسألهم الله : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

فهنا يقول الحق سبحانه : لا تفهموا أن أحداً تأبى علىَّ ، من خَلْقى ، إنما أردتُ لهم الاختيار ، ثم أخبرتهم بما أحبّ أنْ يفعلوه ، فيريد الله أن يعلم علم وقوع بمَنْ آمن به ، وهو يملك ألاَّ يؤمن . وإلا فهو سبحانه عالم أزلاً ؛ ليكون الفعل حجة على أصحابه ، إذن : إياك أنْ تظنَّ أنك باختيارك كسرت قهر العلى .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الذين ألفوا التمرد على الله إيماناً به ، فكفروا وتمردوا على طاعته فعصوه .. الخ نقول لهم : ما دُمْتم قد تعودتم التمرد على أوامر الله ، فلماذا لا تتمردون على المرض مثلاً أو على الموت ؟ إذن : أنت عبد رغم أنفك .

يقول سبحانه هنا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا .. (١٣) ﴾ [السجدة] أى : لَجعل الناس كالملائكة ، وكالمخلوقات المسيَّرة التى لا اختيار لها ، وسبق أنْ قُلْنا : إن المخلوقات كلها خُيِّرت فى حمل الأمانة ، وليس الإنسان وحده ، لكن الفرق أن ابن آدم أخذ الاختيار مُفصَّلاً ، وبقية الخَلْق أخذوا الاختيار جملة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ومعنى الهداية فى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا .. (١٣) ﴾ [السجدة] أى : هدى المعونة ، وإلا فقد هدى اللهُ جميعَ الناس هُدى الدلالة على طريق الخير ، فالذى أخذ بهدى الدلالة وقال على العين والرأس يأخذ هدى المعونة ، كما قال سبحانه ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ولكى نفهم الفرق بين الهديين ، اقرأ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ .. (١٧) ﴾ [فصلت] أى : دللناهم وأرشدناهم ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧) ﴾ [فصلت]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ [السجدة]

الحق سبحانه يريد أنْ يثبت لخَلْقه أنه هو الأوْلَى بالحكمة فى الخَلْق ، بدليل أن الذى يشذ عن مراد الله لا بُدَّ أن يفسد به المجتمع ، كما نرى المجتمعات تشقى بكفر الكافر ، وبعصيان العاصى .

والحق سبحانه يترك الكافر يكفر باختياره ، والعاصى يعصى باختياره ليؤذى الناس بإثم الكافر وبإثم العاصى ، وعندها يعودون إلى تشريع الله ويلجئون إلى ساحته سبحانه ، ولو أن الناس عملوا بشرع الله ما حدث فساد فى الكون ولا خَلَلٌ فى حياتهم أبداً .

لذلك نفرح حينما ينتقم الله من أهل الكفر ومن أهل المعصية ، ونقول : الحمد لله الذى أراح منهم البلاد والعباد .

إذن : مخالفة منهج الله فى القمة كفراً به سبحانه ، وفى غيرها معصيةً لأمره هو الذى يبين مزايا الإيمان وحلاوة التشريع . وقلنا :

إن التشريع يجب أنْ يأخذه المكلَّف أخْذاً كاملاً بما له وبما عليه ، فالله كلَّفك ألاَّ تسرق من الناس ، وكلَّف الناسَ جميعاً ألاَّ يسرقوا منك .

ومعنى ﴿ وَلَـٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي .. (١٣) ﴾ [السجدة] أى : وقع وثبت وقُطع به ، ويأتى هذا المعنى بلفظ سبق ، كما فى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) ﴾ [الصافات] وفى قصة نوح عليه السلام : ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ .. (٢٧) ﴾ [المؤمنون]

وقال تعالى حكايةً عن الكفار فى حوارهم يوم القيامة : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) ﴾ [الصافات]

ومعنى ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ [السجدة] عرفنا أن الله تعالى خلق الجنة ، وخلق لها أهلاً يملأونها ، وخلق النار وخلق لها أهلاً يملأونها ، فليس فيهما أزمة أماكن ، فالجنة أُعدَّتْ لتسع جميع الخَلْق إنْ آمنوا ، وكذلك النار أُعدَّتْ لتسع الخَلْق جميعاً إنْ كفروا .

لذلك حين يذهب أهل الجنة إلى الجنة يرثون أماكن أهل النار فيها[1] ، كما قال سبحانه : ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾ [الأعراف]

والجِنَّة : أى الجنّ والعفاريت .

---

(١) أخرج ابن ماجة فى سننه (٤٣٤١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال ﷺ : « ما منكم من أحد إلا له منزلان : منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) ﴾ [المؤمنون] » . قال البوصيرى فى الزوائد : هذا إسناده صحيح على شرط الشيخين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

والتقدير : ذوقوا العذاب ، كما جاء فى آية أخرى ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القمر] ويُقال هذا لزعماء ورءوس الكفر ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان]

واختار حاسة التذوق ؛ لأن كل وسيلة إدراك قد تتصل بلون من ألوان الترف فى الحياة ، أمَّا الذوق فيتصل بإمداد الحياة ، وهو الأكل والشرب ، وبهما قوام حياة الإنسان ، فهما ضرورتان للحياة لا مجردَ ترف فيها .

وفى موضع آخر ، يُبيِّن لنا الحق سبحانه أثر الإذاقة ، فيقول عن القرية التى كفرت بربها : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل] وتصور أن يكون الجوع لباساً يستولى على الجسم كله ، وكأن الله تعالى يريد أنْ يُبين لنا عضة الجوع ، التى لا تقتصر على البطن فحسب ، إنما على كل الأعضاء ، فقال ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل] لشمول الإذاقة ، فكأن كل عضو فى الجسم سيذوق ألم الجوع ، وهذا المعنى لا يؤديه إلا اللفظ الذى اختاره القرآن .

وقد فطن الشاعر إلى هذه الشمولية التى تستولى على الجسم كله ، فقال عن الحب الإلهى حين يستشرف فى القلب ويفيض منه ليشمل كلَّ الجوارح ، فقال :

خَطَراتُ ذِكْرِكَ تَسْتثيرُ مودَّتى فأُحسُّ منها فى الفُؤاد دَبيبَا
لاَ عُضْوَ لى إلاَّ وَفيه صَبَابةٌ[1] فكأنَّ أعْضَائى خُلِقْن قُلُوبَا

وعلّة هذه الإذاقة ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا .. (١٤)﴾ [السجدة] أى: يوم القيامة الذى حدَّثناكم عنه، وحذَّرناكم من أهواله، فلم نأخذكم على غِرَّة، لكن نبهناكم إلى سوء العاقبة، فلا عذرَ لكم الآن، وقد ضخَّمنا لكم هذه الأهوال، فكان من الواجب أن تلتفتوا إليها، وأنْ تعتبروا بها، وتتأكدوا من صدْقها.

أما المؤمنون فحين يروْنَ هذا الهول وهذا العذاب ينزل بالكفرة والمكذِّبين يفرحون؛ لأن الله نجاهم بإيمانهم من هذا العذاب.

وتكون عاقبة نسيان لقاء الله ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ .. (١٤)﴾ [السجدة] فأنتم نسيتم لقاء الله، ونسيتم توجيهاته، وأغفلتم إنذاره وتحذيره لكم، ونحن تركناكم ليس هملاً، إنما تركناكم من امتداد الرحمة بكم، فقد كانت رحمتى تشملكم فى الدنيا، ولم أخصّ بها المؤمنين بى، بل جعلتُها للمؤمن وللكافر.

فكل شىء فى الوجود يعطى الإنسان مطلق الإنسان طالما أخذ بالأسباب، لا فرق بين مؤمن وكافر، هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فننساكم من هذه الرحمة التى لا تستحقونها، بل: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ [السجدة]

فإنْ كنتم قد تمردتم على الله وكفرتم به فى دنيا محدودة، وعمرك فيها محدود، فإن العذاب الواقع بكم اليوم خالد باقٍ دائم، فخسارتكم كبيرة، ومصيبتكم فادحة.

---

(١) الصبابة: الشوق. والصَّبُّ: العاشق المشتاق. [لسان العرب ـ مادة: صبب].

وقلنا : إن العمل فى الدنيا للآخرة يمثل معادلة ينبغى أنْ تُحلّ حلاً صحيحاً ، فأنت فى الدنيا عمرك لا يُحسب بعمرها ، إنما بمدة بقائك فيها ، فهو عمر محدود ، أما الآخرة فخلود لا ينتهى ، فلو أن النعيم فيهما سواء لكان امتداد الزمن مرجحاً للآخرة .

ثم إن نعيمك فى الدنيا على قدر إمكاناتك وحركتك فيها ، أما نعيم الآخرة فعلى قدر إمكانات الله فى الكون ، نعيم الدنيا إما أنْ يفوتك أو تفوته أنت ، ونعيم الآخرة باقٍ لا يفوتك أبداً لأنك مخلد فيه .

إذن : هى صفقة ينبغى أنْ تُحْسَبَ حساباً صحيحاً ، وتستحق أن نبيع من أجلها الدنيا بكل ما فيها من غالٍ ونفيس ؛ لذلك سماها رسول الله تجارة رابحة .

وقال سبحانه وتعالى عن الكافرين ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾

الخرور : السقوط بغير نظام ولا ترتيب ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [النحل] وفى موضع آخر قال سبحانه فى هذا المعنى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء] أى : من قبل القرآن ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الإسراء]

فالخرور أنْ تهوى إلى الأرض ساجداً دون تفكير ، وكل سجود

فى القرآن يتلو هذه المادة (خرَّ) دليل على أنها أصبحتْ ملَكة وآلية فى المؤمن ، بل ويؤكدها الحق سبحانه بقوله : ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) ﴾ [الإسراء] لأنه سجود يأخذ الذقن ، فهو متمكن فى الذلّة ، وهو فوق السجود الذى نعرفه فى الصلاة على الأعضاء السبعة المعروفة .

ولم يُذكر الخرور مع الركوع إلا فى موضع واحد ، هو قوله تعالى فى شأن سيدنا داود : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) ﴾ [ص]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) ﴾ [الإسراء] فكلما ازدادوا ذلّة ازدادوا خشوعاً ، فكأنهم عشقوا التكليف ، وأحبوا أوامر الله ؛ لذلك بالغوا فى الذلة والعبودية لله تعالى ، وهذه المسألة تفسر لنا قول النبى ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء »[1] .

ففى السجود تضع وجهك وجبهتك ، وهى رمز العلو والرِّفْعة تضعها على الأرض خضوعاً لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم[2] :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) ﴾

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٢) كتاب الصلاة . وكذا أحمد فى مسنده (٤٢١/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) **سبب نزول الآية** : أخرج البزار (٢٢٥٠ - كشف الأستار للهيثمى) عن بلال بن رباح أنه قال : كنا نجلس فى المجلس وناس من أصحاب النبى ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ .. (١٦) ﴾ [السجدة] . وأورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٣٦) وعزاه للبزار وضعَّفه بشيخه عبد الله بن شبيب.